الأحكام النّقدية في الحجاز

أ.د العلمي لراوي

إن الإسلام قد تعامل مع الأدب بوصفه سلوكا وممارسة، وعلى ضوء هذا التصنيف يتم تقويم الأدب والحكم عليه، ونحن نعلم أن أي سلوك لابد أن يهدف إلى تحقيق غاية معينة وبناء على هذه الغاية يحدد الإسلام علاقته مع الأدب. فالإسلام لم يحظر الشعر ولم يقف دونه ولكن سبحانه وتعالى نزه كلامه عن أن يكون شعرا ورفع رسوله من أن يكون شاعرا، كما نجد القرآن قد ميز بين شعر وشعر وشاعر وآخر، وهذا في الآية التالية: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ [1].

فالاستثناء الوارد في هذه الآية قد شمل الشعراء المؤمنين، وبذلك وضع الأساس الأول للممارسة الشعر وهو الإيمان بالله سبحانه وتعالي. ثم الالتزام بخدمة مبادئ العقيدة الإسلامية. وقد كان موقف الرسول ﷺ متماشيا مع القرآن الكريم، فالشعر الجيد لديه هو ذاك الذي يوافق الحق ويبتعد عن الباطل، فقد أرجع جمال الشعر إلى جمال موضوعه، وهذا يكمل مقصد الآية القرآنية التي تعرضت للشعر، قال ﷺ:

(الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها) [2]

وكذلك قال: (إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب) [3].

فالرسول لم يكن يعارض الشعر كفكرة مجردة أو كسلوك يمارسه الشاعر، فهذا السلوك لم يكن محل معارضة أبدا بل أشاد بالجانب الفني وتأثر له وإنما يصادف معارضة إذا جانب الحق ودعا إلى الباطل والشر، فالمعيار الذي يستند عليه الرسول هو مدى خدمة الشعر للحق والخير إلى جانب قيمته الفنية. وعلى هذا النهج سار خلفاء الرسول ﷺ في تقييمهم للشعر وتذوقهم له والحكم عليه، ومن الخلفاء الراشدين الذين أسهموا في النقد إسهاما كبيرا الخليفة عمر بن الخطاب الله رضي عنه فقد مكنه إعجابه بالشعر وتذوقه له وحفظه لكثير منه من الإدلاء بآراء نقدية ذات أهمية كبيرة. فقد قال عنه ابن سلام: (لا يكاد يعرض له عارض إلا أنشد فيه بيتا من الشعر) [4]، كما أشاد به ابن رشيق القيرواني فقال: (وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة) [5].

ومن أحكامه النقدية ما يلي: قال عمر مرة لابن عباس: (ألا تنشدني لشاعر الشعراء.

فقلت: يا أمير المؤمنين، ومن شاعر الشعراء؟

قال: زهير فقلت: لم صيرته شاعر الشعراء؟

قال: لأنه لا يعاظل بين الكلاميين، ولا ينبع وحشي الكلام ولا يمدح أحدا بغير ما فيه) [6]

فهذا الحكم يقوم على جانبين:

جانب أسلوبي: يتمثل في قوله: (لأنه لا يعاظل بين الكلامين، ولا يتبع وحشي الكلام) ويعني بوحشي الكلام الألفاظ الغريبة الوحشية والتي إذا وردت في الكلام أفسدته وأفقدته طابع السهولة، فكأن عمر يريد أن يضع مقياسا فنيا في تقديم الشعر يتمثل في مراعاة الصياغة في الشعر.

أما الجانب الثاني في الحكم: فينصب على الصدق في التعبير الذي يتمثل في قوله (ولا يمدح أحدا بغير ما فيه ويعني بهذا التزام جانب الموضوعية في وصف الأمور والابتعاد عن الإسراف والمبالغة في تصوير الأشياء، إذ يعد ذلك ضربا من ضروب الكذب والنفاق والرياء الذي يتعارض مع مبادي العقيدة الإسلامية التي يحرص عمر على المحافظة عليها. وقد امتد هذا الاتجاه في عهد بني أمية، ولكن ليس بالحدة نفسها التي كان عليها في عصر صدر الإسلام، نظرا للتطور الذي عرفته الخلافة في السياسة والحكم. فلم يعد من أنصار الاتجاه الأخلاقي إلا بعض الفقهاء والشيوخ الذين أبت عليهم نزعتهم الدينية إلا أن يقفوا في وجه التيارات الغزلية التي غزت الحجاز آنئذ واستجاب لها الشباب، فقد أدركوا خطر هذا الشعر فمنعوه ووقفوا ضده، والنص التالية يبين ذلك. قالت ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب: (مررت بجدك عبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر،

فقال: ما هذا معك؟ ودعاني فجئته

فقلت: شعر عمر بن أبي ربيعة

فقال: ويحك أتدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة، إن لشعره لموقعا من القلوب، ومدخلا لطيفا لو كان شعر يسحر لكان هو، فارجعي به.

فقالت ففعلت [7].

فالتأثير السببي الذي يتركه شعر عمر في سلوك الشباب هو الذي حدا بمصعب أن يقف منه هذا الموقف ويمنعه من دخول البيت، وقول عبد الله بن مصعب وان لشعره لموقعا من القنوب ومدخلا لطيفا) تقدير واضح واعتراف صريح بقوة وشدة أسره للنفوس، فالنزعة الأخلاقية هي التي تقف وراء هذا ا الحكم وقد ضحت بالجانب الفني عندما وقع الانتقاء بين الجمال و الفن والأخلاق فكانت الأخلاق أولى بالتقدمة فهذا الحكم خلفيته الثقافية هي الشريعة الإسلامية، وهذا الحكم يذكرنا بأحكام الرسول والخلفاء الذين لم يترددوا في رفض هذا النوع من الشعر والمعاقبة عليه. وغير بعيد عن هذا الحكم حكم هشام بن عروة الذي يقول: (لا تروووا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لئلا يتورطن في الزنا تورطا وأنشد) [8]

لقد أرسلت جاريتي وقلت لها خذي حذرك

وقولي في ملاطفة لزينب نولي عمـــرك

كما أن حكم ابن جريج يندرج في السياق نفسه الذي سارت فيه الأحكام السابقة، إذ يقول معلقا على شعر عمر بن أبي ربيعة: (ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر عليهم من شعر عمر بن أبي ربيعة [9]، هذه الأحكام جميعها تركز على مضمون الشعر وتفترض فيه أن يكون مضمونا ملتزما بالحق والفضيلة مهما كان الشكل الذي يعبر به عن هذا المضمون، أما إذا كان مضمون الشعر بعيدا عن القيم السمحة ويسخر للحديث عن الغرائز و يُذكيها في نفوس السامعين كتلك التي تكلم عنها عمر في أبياته، فهذا ليس من الأخلاق في شيء، وهذه دعوة إلى الانحلال الذي حاربه الإسلام .

وبجانب هذا التيار المحافظ يقوم تيار آخر ولكنه يقف موقف المعجب، بالشعر الجميل بصرف النظر عن مضمونه إدراكا منه أن المعصية تنسب للشعر وليس للشاعر، وهذا اتفاقا من الآية الكريمة: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾. ولذلك رأى أصحاب هذا التيار أن الشاعر لا يحاسب على شعره أخلاقيا، إذ ليس بالضرورة أن يفعل ما يقوله فالشاعر فنان وعاشق للجمال يتغنى به وعلينا أن نتمتع بهذا الجمال في غير حرج.

وخير من يمثل هذا التيار الفقيه "ابن عابس فقد كان يتذوق الشعر ويعجب به مهما كان موضوعه إذ كان ينشد الشعر ثم يدخل في الصلاة ليدلل أن الأدب لا يدخل في العقيدة ولا يؤثر فيها، ونسجل في هذا السياق مناظرة بين ابن عباس ونافع الأزرق حول فلسفة استحسان الشعر. فقد كان في المسجد الحرام وعنده نافع الأزرق وناس من الخوارج يسألونه، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال أنشدنا فأنشده:

آمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتي على آخرها، فأقبل عليه – نافع بن الأزرق – فقال: الله يا ابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجلا أما إذا الشمس علرضت فيخزي وأما بالعشي فيخسر

فقال ليس هكذا قال:

فقال: ***رأيت رجلا أما إذا الشمس علرضت فيضحي وأما بالعشي فيخضر***

فقال: ما أراك إلا وقد حفظت البيت؟

قال: أجل، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها

قال: فإني أشاء

أنشده القصيدة حتى أتي على آخرها [10]

في هذه المناظرة نلاحظ الانفصال الذي تم بين الأخلاق والشعر، والذي سيتطور فيما بعد ويصبح الفن بمعزل عن الأخلاق. في ضوء ما تقدم نلاحظ أن النزعة الأخلاقية في الشعر يتجاذهما تياران: أحدهما يستهجن الشعر الماجن ويحذر منه وهذا مستمد من المعيار السابق، أحسن الشعر ما وافق الحق وما لم يوافق فلأخير فيه وتيار يعجب بما يتضمن الشعر من جمال وفن وقد استمد مفهومه من الآية القرآنية السابقة الذكر، وفي هذا الإطار يندرج قول عبد الله بن أبي عتيق، فقد قال: عن شعر عمر بن أبي ربيعة: (لشعر عمر بن أبي ربيعة لوطة في القلب، وعلوق بالنفس و درك للحاجة ليست لشعر، وما عصي الله جل وعز، بشعر أكثر مما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك: أشعر قريش من دق معناه ولطف مدخله وسهل مخرجه ومتن حشوه وتعطفت حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته) [11].

انطلق صاحب الحكم من ملاحظة التجربة العاطفية التي يصدر عنها عمر، كما تعرض إلى القوالب الفنية التي تحمل التجربة، فبدأ بالحديث عن القيم العاطفية لشعر عمر لوطة في القلب، وعلوق بالنفس ودرك للحاجة). يرمي من وراء هذه الألفاظ إلى الكشف عن العاطفة الإنسانية التي تشيع في شعر عمر، فهي عاطفة ذاتية غيرية، فكأنه يشير إلى القدرة الفائقة التي يتمتع بها عمر في تحسس مشاعره والتعبير عنها بصدق وأمانة حينئذ يجد المتلقي في هذا التعبير تعبيرا عن حاجته النفسية التي كان يشعر بها ولا يستطيع الإفصاح عنها، وبذلك نهضت تجربته الخاصة فارتقت إلى التجربة الإنسانية العامة التي يجد فيها كل إنسان تعبيرا عن حاجته النفسية.

وبعد هذا انتقل الحكم إلى القيم الفنية المتمثلة في دقة المعنى وإنارة المعاني التي يقصد بها طريقة عمر في تناول مشاعره والتعبير عنها في صدق وبأسلوب بسيط من غير التواء وتعقيد، ومرد هذا إلى بساطة تجربته ووضوحها في نفسه، فينقلها في عبارات واضحة التعبير بسيطة التركيب شديدة الإيحاء قريبة الفهم، وبعبارة موجزة نقول إن دقة المعنى تعني دقة المشاعر وإنارة المعني تعني وضوح أسلوب الكشف عنها. أما فيما يخص لطف المدخل وسهولة المخرج فإنها تعني براعة الاستهلال وحسن الاختتام. كما وجدنا أحكاما نقدية لشعراء من ذلك ما قاله كثير لعمر بن أبي ربيعة: (يا عمر والله لقد قلت فأحسنت في كثير من شعرك، ولكنك تخطئ الطريق، تتشب بها ثم تدعها وتتشبب بنفسك أخبرني عن قولك:

قالت لترب لـــها تحدثها لتفسدن الطواف في عمــر

قومي تصدي له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها غمزته فأبـــي ثم اسبطرت تشتد في أثري

أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك، أهكذا يقال للمرأة إنما توصف بالخفر وأنها مطلوبة ممتنعة) [12].

هذه المقاضاة الشعرية تبين بكل وضوح فلسفة كل شاعر واتجاهه الشعري مما لا شك فيه أن عمر قد حلول أن يتحرر من القيم المعنوية والفنية التقليدية. ويصف واقعا جديدا يحسه ويعيشه، حاول أن ينرع نزوعا طبيعيا نحو الصدق في تصوير الحياة التي تغيرت قيمها أو مفاهيمها، ولكن كثيرا وقف ضد هذا الجديد وحكم عليه بالفساد على أساس أنه خالف العرف المألوف. فعمر قد صور واقعا معينا يعكس تغير وضع المرأة في المجتمع وتحررها من القيود بسبب شيوع الحرية الاجتماعية التي أعطت لها ما لم يكن متاحا لها من قبل بينما نجد كثيرا قد تأثر ببيئته العراق بسبب انخراطه في السياسة ومتابعته للعلويين، ونتيجة تأثر كثير بهذه الفلسفة التقليدية في النقد أنكر على عمر أن يقلب الأوضاع ويصور المرأة طالبة لا مطلوبة.

وتتضح الصورة أكثر عندما نقرأ حكم عمر على كُثَير، فقال له: أخبرني عن تخيرك لنفسك ولمن تحب حين

تقول:

ألا ليتنا يا عز من غير ريـبة بعيران نرعي في الخلاء ونعزب

كلانا به عر فمن يرنـــــــا على حسنها جرباء تعدى وأجرب

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمـــي ونضرب

نكون بعيري ذي غنا فيضعنا فلا هو يرعـــانا ولا نحن نطلب

فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والحرية والرمي والصرد والمسخ فأي مكروه لم تتمن لها ولنفسك؟ لقد أصابها منك قول القائل (معاداة عاقل خير من مودة أحمق) [13]، فعمر ينكر على كثير هذه الاستعارات التي ركبها للتعبير عن أمله في العيش مع عزة، فهذا تعبير عن نزعة ذوقية تقليدية جاهلية لم تعد مستساغة، وكأن عمر في ذوقه هذا عن المقياس الذي حدده - ابن أبي عتيق - حين طالب الشعراء التزام الصدق في التعبير عن المشاعر والانفعالات كما تحيا في وجدان الإنسان وليس كما هي في الأعراف والتقاليد. ومن هذا يظهر لنا أن الرؤية النقدية إلى الشعر الغزلي قد تناعها تياران، تيار يرى في التزام الشعراء بمعطيات الواقع الجديد دليل انعتاق من الموروث القديم، إذ لم يعد الشاعر تابعا بمشاعره وعواطفه إلى العصر الجاهلي إلى عصر لم يعشه، وما ينجر عن ذلك من زيف في التصوير وتصنع في التعبير، بل عليه أن يتفاعل مع مستجدات حاضرة ومعطيات عصره. أما الثاني يقبل على الشعر الغزلي الجديد ويعجب به ولكنه يرى أن مضمونه لا يتفق والأعراف الفنية المألوفة، ولعل مرجع ذلك أن أصحاب هذا التيار من أهل البادية التي هي أكثر ثباتا وأقل تطورا وقبولا للأنماط الحضارية الجديدة.

الأحكام النّقدية في الشّام والعرَاق

وقد امتدت هذه الحركة النقدية إلى الشام والعراق، فراح نقادها ينزعون نزعة تقليدية في أحكامهم. على وزن الحركة الأدبية التي سادت في عصرهم، ويرجع سبب هذا التمسك بالتقاليد الفنية الجاهلية إلى عدة أسباب منها: أن العراق قد توفر على قدر ضخم من الشعر الجاهلي الذي أسهم الرواة في جمعه من البوادي العربية، ومن أفواه الأعراب الوافدين إليهم في الكوفة والبصرة، فأقبل على هذا الموروث الشعري كل من الشعراء والنقاد يقلبون فيه النظر، فأعجبوا بلغته، وأنماط تصويره و موضوعاته وطريقة تناوله للحياة بصفة عامة، ولعل الشاعر هو أول من تأثر بهذا القديم و راح ينسج على منواله دون أن يبيح لنفسه حرية الخروج من هذه الدائرة المغلقة، لأنه لو صادف أن خرج أحدهم لعزف النقاد عن شعره، وبهذا أصبح الشعراء يتبارون في انتقاء الألفاظ الوعرة والصور الغريبة ليبرزوا مدى تمكنهم من تناول القديم وحسن إجادته (فكان بين أيدي شعراء العراق منه ثروة هائلة أغرقتهم وسدت عليهم منافذ الابتكار وحصرتهم في حيز التقليد للمجموع تقليدا، وقف بهم أول الأمر عند المفردات اللغوية والصور الغريبة منه، حتى صح القول عندهم بأن من لم يقرأ شعر جرير والفرزدق لم يعرف اللغة العربية أو شعرها، ذلك أن جرير وصحبه من شعراء العراق كانوا نسخة مكررة من الشعر الجاهلي وإن انحطت عنه في المستوى) [14].

كما يعود سبب التمسك بالقديم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية التي كان يحيا في وسطها الشعراء والنقاد، فقد كانت تعج بالاضطرابات السياسية والاجتماعية، فكان من نتائج الاضطرابات السياسية أن واجه الخلفاء أعداء أقوياء مناوئين لحكمهم فاحتاجوا إلى من يدافع عنهم بالكلمة ويشيد بمائرهم ويتغنى بسجياهم، ويقف ضد أعدائهم، فوفد إليهم الشعراء من مختلف الأقاليم المفتوحة وتحولت قصورهم إلى ساحات أدبية يتبارى فيها الشعراء في مدح الخلفاء يدفعهم في ذلك طمع نيل الجوائز الثمينة والمكافئات الكبيرة. ومن الطبيعي أن يتدخل النقد ليحدد الشعر الجيد الذي يأخذ صاحبه الجائزة.

أماما نتج عن الاضطرابات الاجتماعية واستفحال التناحر بين القبائل فقد جعل الشعراء يفتخرون بقبائلهم ويهجون هجاء لاذعا خصوم قبائلهم وعشائرهم.

وبهذا نلاحظ أنه كان للحياة الاجتماعية والسياسية نصيب كبير في إحياء موضوعات الشعر وأغراضه التقليدية والرجوع بهما إلى العهد السالف.

أما الحديث عن أصحاب النقد فسوف نقصره على بعض من شهد لهم العصر بباع نقدي طويل، دون الرجوع إلى الملاحظات الجزئية المشتتة التي كانت تنطلق من كل لسان وتذهب كل مذهب، ولذلك لا مناص من الاكتفاء بالأحكام الكلية التي قد تتيح لنا استنتاج دلالات نقدية معينة.

1- المجالس النقدية

لقد نالت قصور الخلفاء الأمويين اهتمام الشعراء والنقاد بسبب حب الخلفاء للشعر، فقد كانت تقام في قصورهم مجالس أدبية يقف فيها الشعراء بين أيدي الخليفة ليلقوا مدائحهم وأعضاء المجلس يستمعون، وبعد فراغهم من الإلقاء يحدد مجلس الخليفة المتفوق من الشعراء، أو قد يكون الخليفة نفسه هو الذي يصدر وبذلك ارتبط مصير الشعر والشعراء بالقصر (فمجد الشاعر مرتهن بالوصول إلى باب الأمير، ومكانته يحددها القصر، وحظوته برضا الأمير مضمونة ما قصر وجدانه على تأييده والتغني بسجاياه) [15]

وكان عبد الملك بن مروان من أكثر الخلفاء اهتماما بالشعر ونقده من ذلك ما أورده المرزباني:

قال (أنشد كثير عبد الملك* مدخنه التي يقول فيها:

على ابن أبي العاص دلاص حصينة أجاد المسدى سردها وأذالهـــا

يؤود ضعيف القوم حمـل قتيرهـــا ويستضلع القوم الأشم احتمالا ها

فقال له عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معدي كرب أحب إلى من قولك إذ تقول:

وقال ابن أبي خيثمة في حديثه: ألا قلت كما قال الأعشى:

وإذا تجيء كتيبة ملمومـــة خرساء يخشى الذائدون نهالها

كنت المقدم غير لا بس جنة بالسيف تضرب معلما أبطـــالها

فقال: يا أمير المؤمنين، وصف الأعشى صاحبه بالطيش والحرق والتغرير ووصفتك بالحزم والعزم فأرضاه) [16].

أول ما نسجله حول هذا الحكم هو اتكاء صاحبه على النمط الجاهلي في قياس معاني الشعراء، وهذا يدل على ارتباط ذوق صاحب الحكم بالذوق الجاهلي ومما يؤكد هذا ما عرف من حب عبد الملك لشعر الأعشى، وتفضيله على سائر الشعراء، فقد قال لمؤدب أولاده:

(أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة - قاتله الله - ما كان أعذب بحره وأصلب صخرة فمن زعم أن أحدا من الشعراء أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر) [17].

أما المعيار الذي وازن به عبد الملك بين صورة كثير والأعشى فهو المبالغة في تناول الأمور وتصويرها، وإن لم يشير إلى ذلك عبد الملك فقد علق المرزباني مبينا سبب هذا التفضيل بقوله: (رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كثير، لأن المبالغة أحسن عنده هم من الاقتصار على الأمر الأوسط، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جنة، على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب، ففي وصف الأعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه، لأن الصواب له، ولا لغيره إلا لبس الجنة وقول كثير يقصر عن هون الوصف) [18].

والحقيقة أن تفضيل عبد الملك كان صحيحا لما في بيتي الأعشى من تصوير وحركة على عكس ما قاله كثير الذي هو من قبيل الوصف السطحي الساكن.

ومن أحكام عبد الملك بن مروان التي كان مقياس المبالغة يوجهها ما يلي:

(أنشد كثير عزة بن مروان قوله:

فما رجعوها عنوة عن مودة ولكن بحد المشرفي استقالها

فقال للأخطل كيف تسمع: قال: هجاك يا أمير المؤمنين،

قال: بل حسدته.

فقال الأخطل: ما قلت لك يا أمير المؤمنين أحسن من هذا حيث أقول:

أهلوا من الشهر الحرام فلصبحوا موالي ملك لا طريف ولا غصب

فجعلته لك حقا وجعلك اغتصبته) [19]

فنزعة المبالغة واضحة في استحسان عبد الملك لبيت كثرعزة إذ جعل المجد لا ينال إلا بحد السيف كما كانت تمدح الشعراء في العصر الجاهلي أبطالها فتجعلهم لا ينالون العز إلا على رؤوس الرماح، وهذا ليس بغريب على الخليفة عبد الملك فمكانته كحاكم تستوجب المدح بمثل هذه الصفات حتى ترتفع قيمته وتضخم صورته بين أفراد المجتمع وبناء على هذا كانت صورة كثير أحب إلى نفس عبد الملك من الصورة التي رسمها له الأخطل وهي صورة تتضمن قيما إسلامية

- وغير بعيد عن حكمه هذا ما قاله لعبيد الله بن قيس الرقيات عندما أنشده مادحا إياه بالأبيات التالية:

إن الأغر الذي أبوه أبوالـ ـــعاص عليه الوقار والحجب

يعتدل التاج فرق مفرقـــه على جبيـــن كأنـــــه الذهب

فقال له عبد الملك: يا بن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب بن الزبير

أنما مصعب شهاب من اللـــ ـــــه تجلت عن وجهة الظلماء

ملكه ملك عزة ليـــــس فيه جبروت منـــــه ولا كبريـــاء [20]

فقد اقتصر مدح عبد الله بن قيس الرقيات للخليفة على تصوير المظهر الخارجي المتمثل في ملك يعلو رأسه تاج ذهبي، وهذا ما لم يعتده الخلفاء بحيث يرغبون أن يعكف الشعراء على إظهار الصفات المعنوية للخليفة العادل، والتاج لا يوحي بالعدل والسماحة بل يدل على الاستبداد والطغيان، ولعل مرجع نفور الخليفة أنه لا ينطبق مع النمط القديم في المدح، فالمقياس الذي اعتمده عبد الملك في تقييم هذه المعاني الواردة في مدح عبد الله بن قيس الرقيات هو معاني المدح القديمة التي تركز على إبراز الفضائل التي يمتاز فيها على غيرة وتجسيدها في رموز الواقع العربي المألوف، وهذا ما لم يحدث في مدح عبد الله بن قيس الرقبات .

من هذا المثال الذي اخترناه لعبد الملك نلاحظ أن أحكامه قد اقتصرت على موضوع الشعر ولم تتعد إلى ملاحظات أسلوبية أو لغوية، وربما كان الموضوع هو الذي يهمه كخليفة لأنه يلبي عنده نزعة غرور الملك.

وبالإضافة إلى أحكامه على المدح نجد له بعض الأحكام التي انصبت على بعض الأغراض الأخرى كالغزل مثلا، فقد دخل الشاعر الأقيشر على عبد الملك، وعنده قوم فتذكروا الشعر وذكروا قول نصيب بن رباح:

أهيم بد بعد ما حييت فإن أمت فيا ويح دعد من يهيم بها بعدي؟

فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر

قال عبد الملك، فكيف كنت تقول لو كنت قائله؟

قال كنت أقول:

تحبكم نفسي حياتي فإن أمت أو كل بله دعد من يهم بما بعدي

قال عبد المالك: والله لأنت أسوا قولا منه حين توكل بها

فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين؟

قال كنت أقول:

تحكم نفسي حبائي فإن أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

فقال القوم جميعا: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم [21].

فواضح هنا أن الحكم قد انصب على مدى انسجام معان الشعر مع الواقع المعيش دون أن يعير أدني اهتمام لعاطفة الشاعر وإحساسه وما يعتريهما من أهواء، قد تقلب المعاني وتهدم منطق الأمور، فبيت نصيب فيه من الشاعرية ما يخلو منه البيتان الآخران ومع ذلك فقد تعرض بيت نصيب لهذا الحكم التعسفي من لدن عبد الملك و من كان في مجلسه.

والمقياس السابق نفسه هو الذي حكم بوساطته على كثير عزة فقد قال عبد الملك بن مروان: لو قال كثيرعزة بيته:

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

في حرب لكان أشعر الناس. ولو أن القطامي قال بيته الذي وصف فيه مشية الإبل قوله:

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

في النساء لكان أشعر الناس [22].

ومن أحكام عبد املك النقدية التي اتصلت بالشعر، هذا الحكم على قصيدة الراعي النميري التي من أبياها:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى الله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيـــلا

فقال عبد الملك: ليس هذا شعرا، هذا شرح إسلام وقراءة آية. [23]

فهذا الالتماس الذي قدمه الراعي لعبد الملك لم يلب فيه نزعة الحاكم القوي كما ألفنا ذلك عند الشعراء القدماء كالنابغة عندما اعتذر للنعمان ولهذا لم يكترث عبد الملك لأبيات الراعي، لأنه كان يبحث عن معاني أقوى وأضخم من الذي سمعه.

كانت هذه النماذج من الأحكام النقدية التي كانت تدور في قصور الخلفاء وقد كان عبد الملك بن مروان يمثل فيها الناقد، وقد اقتصرنا على عدد قليل من أحكامه كنماذج تكشف عن الاتجاه العام للنقد في هذه المجالس وقد كانت السمات العامة لهذه الأحكام تشبه إلى حد بعيد أحكام العصر الجاهلي، إذ لم تبرأ من الجزئية والانفعالية والارتجالية والذوقية ونود أن نسجل هنا ملاحظة على غاية من الأهمية حول الذوق، وهي أن تذوق الشعر لم يكن قد تحرر بعد من الذوق الجاهلي، فإذا كنا وجدنا أصحاب التيار النقدي الجديد أصبحوا يصدرون أحكامهم النقدية عن ذوق متطور مستمد من واقعهم الجديد، فإن ذوق هؤلاء تقليدي يرجع بأصوله إلى العصر الجاهلي، وهذا نظرا لتشبعهم بالموروث الجاهلي وانتصارهم له.

كما أن المقاييس التي استندوا عليها في الحكم على الشعر هي نفسها التي كانت سائدة في الاتجاه الذوقي.

2- النقاد الشعراء:

لا تكاد تختلف أحكام الشعراء عن الأحكام السابقة التي استعرضناها وهذا يرجع لسطوة القديم على هؤلاء فأقبل الشعراء يتدارسونه ويتمثلونه في جميع أقوالهم، واتخذوا منه نموذجا فنيا لكل عملية شعرية سواء في المعاني أو الأغراض أو التقاليد الفنية بصفة عامة، وهكذا أصبحوا في جميع أشعارهم محاكين للقديم وإن كانوا قد قصروا عنه في أغلب الأحيان.

فإذا كان الشعراء الأوائل قد طرقوا جميع الأغراض الشعرية، فإن هؤلاء قد استقر في أذهانهم أن طرق جميع الأغراض من مدح وهجاء وفخر وغزل... دليل نبوغ شعري، ولهذا نهض عندهم هذا المعيار في قياس شاعرية الشاعر، فقد كانوا يقيسون شاعرية الشاعر بمدى قدرته على طرق جميع الأغراض، وبذلك أحطوا من منزلة شعراء الحجاز الذين قصروا شعرهم على الغزل.

(فقد أتى عمر بن أبي ربيعة الفرزدق فأنشده من شعره، وقال: كيف ترى شعري؟

قال: أرى شعرا حجازيا إن أنجد اقشعر

فقال له: حسدتني

فقال يا ابن أخي، علام أحسدك؟ أنا والله أعظم منك فخرا وأحسن منك شعرا وأعلى منك ذكرا...) [24].

فالفرزدق يرى أن شاعرية عمر بن أبي ربيعة قاصرة لأنه لم يستطع طرق جميع أغراض الشعر ولا سيما غرض الفخر، كما أنه يرى أن لغته لا ترقى إلى درجة الفحول لأن معنى الشاعر الفحل مقترن بمدى توظيفه للغة قوية وتراكيب رصينة، وهذا ما أومأ إليه بقوله: "أرى شعرا حجازيا إن أنجد اقشعر"

ولعل ما يؤكد لنا أكثر أن مقياس مشاعرية الشاعر مرتبط بمدى طرقه لجميع أغراض الشعر، تصريح البطين عندما سئل عن ذي الرمة أكان ذو الرمة شاعرا متقدما؟

قال البطين: أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان: مدح رافع أو هجاء واضع أو تشبيه مصيب، أو فخر سامق، وهذا كله مجموع في جرير والفرزدق والأخطل، فأما ذو الرمة فما أحسن قط أن يمدح ولا أحسن أن يهجو، ولا أحسن أن يفخر، يقع في هذا كله دونا، وإنما يحسن التشبيه، فهو ربع شاعر.

والمعيار نفسه يصدر عنه جرير عندما سأله عبد الملك من أشعر الناس؟

فقال جرير: (ابن العشرين. قال فما رأيك في بني أبي سلمى؟ قال: كان شعرهما نيرا يا أمير المؤمنين. قال: فما تقول في امرىء القيس؟ قال: اتخذ الخبيث الشعر نعلين، وأقسم بالله لو أدركته لرفعت دلالته. قال: فما تقول في ذي الرمة؟ قال: قدر من ظريف الشعر وغريبه وحسنه على ما لم يقدر عليه أحد. قال: فما تقول في الأخطل؟ قال: ما خرج لسان ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات. قال فما تقول في الفرزدق؟

قال: في يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها. قال: فما أراك أبقيت لنفسك شيئا. قال: بلى والله يا أمير المؤمنين إنني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود نسبت فأطربت وهجوت فأرديت، ومدحت فنسيت وأرملت فأغزرت، ورجزت فأبحرت فأنا قلت ضروب الشعر كلها، وكل واحد منهم قال نوعا منها. قال صدقت). [25]

وفي حديث آخر له مع ابنه عن درجات الشعراء، قال عكرمة بن جرير: (قلت لأبي: يا أبت من أشعر الناس؟

فقال: الجاهلية تريد أم الإسلام؟ قلت: أخبرني عن الجاهلية

قال: شاعر الجاهلية زهير

قلت: فالإسلام؟

قال: نبعة الشعر الفرزدق.

قلت: فالأخطل؟

قال: يجيد صفة الملوك ويصيب نعت الحمر.

قلت: فما تركت لنفسك؟

قال: دعني فإنني نحرت الشعر نحرا.) [26].

انطلاقا من هذه الأحكام يبدو لنا جليا أن مقياس الشاعرية في عرف هؤلاء الشعراء النقاد هو القول في جميع الأغراض الشعرية، وكما نعلم فإن جميع الشعراء الذين انصبت عليهم الأحكام السابقة قد طرقوا جميع الأغراض ومع ذلك تعرضوا هذا الحكم، وبذلك يكون المقصود ليس مجرد القول فقط في أغراض مختلفة إنما المقصود هو الإجادة في جميع فنون القول الشعرية ذلك ما ذهب إليه جرير وغيره في أحكامه السابقة.

كما نجد ضمن أحكام الشعراء النقاد أحكاما يؤكدون فيها أن أغراض معينة فيجعلون منها مقياسا أساسيا في تقدم الشاعر على غيره. وهذان الغرضان الأساسان هما الهجاء والمدح.

ولعل مرد تمسك الشعراء بهذين الغرضين ليس فقط أنهما من الأغراض التقليدية المحببة قديما في العصر الجاهلي ولكن لهذين الغرضين علاقة بالحياة الاجتماعية والسياسية الجديدة التي يحييها الشعراء أنفسهم، فقد ظهرت مرة ثانية النزاعات والشقاقات بين القبائل بعد أن قضى عليها الإسلام، فهذه النزعة القبلية التي أحييت في هذا العصر دفعت بالشعراء إلى أخذ الريادة في هذه المواجهات القبلية للدفاع عن القبلية ورفع شأنها والحط من منزلة القبلية المعادية لها، ومن هنا جاء الدور الخطير الذي يؤديه الهجاء وبحكم هذه الوظيفة التي يؤديها الهجاء أُتخذ منه مقياسا مهما تحدد بوساطته منزلة الشاعر .

أما غرض المدح فهو مرتبط بقيمة الشاعر. ولهذا كان الشاعر الجيد والذي يشاع ذكره وتسمو منزلته من أسرف في إطراء الخلفاء والأمراء وذوي الجاه والمال، فينال رضاهم وعطاياهم إذن هذه هي البواعث الأساسية التي حدت بالشعراء النقاد إلى أن يتخذوا من الهجاء والمدح مقياسا أساسيا لقياس شاعرية الشاعر وإحلاله منزلة أولى بين شعراء عصره.

وما يؤكد لنا خطر غرض الهجاء وسطوته على المجتمع العربي هذه القصة التي أوردها صاحب الأغاني.

(أن الفرزدق قدم المدينة في سنة مجدبة فمشي أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ.

فقالوا له: أيها الأمير إن الفرزدق قدم مدينتنا هذه في هذه السنة الجدبة التي قد أهلكت عامة الأموال التي للأهل المدينة، وليس عند أحد منهم ما يعطيه شاعرا، فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه، وتقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح ولا هجاء، فبعث إليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال:

يا فرزدق إنك قدمت مدينتنا هذه في هذه السنة الجدبة، وليس عند أحد ما يعطيه شاعرا، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم، فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء فأخذها الفرزدق) [27]. فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فعالية الهجاء وارتعاش الناس منه، ومن هنا كان الشعراء يعتدون من أوتي ملكة الهجاء وهذا ما أشار إليه الفرزدق: عندما قال له ذو الرمة: (مالي لا ألحق بكم معاشر الفحول؟ فقال له: لتجافيك عن المدح والهجاء واقتصارك على الرسوم والديار") [28].

فهذا إعلان صريح من الفرزدق على أن الفحولة لا تتأتى إلا من القول في غرضين جوهريين في الشعر وهما المدح والهجاء، أما بقية الأغراض فإنها مهما أجاد فيها صاحبها ومهما تشبه فيها بالقدماء فإنها لا تخول له تصدر الريادة في الشعر.

وهذا جرير يغضب عندما يحكم له بالتفوق في غرض الغزل والتراجع في غرض الهجاء، إذ يرى أن الهجاء هو جوهر شعر الشاعر، فقد روي عن أبي الزناد عن أبيه، قال: (قال لي جرير: يا أبا عبد الرحمن؟ أنا أشعر أم هذا الخبيث – يعني الفرزدق - وناشدني لأخبرنه.

فقلت له: لا والله ما يشاركك ولا يتعلق بك في النسيب، فقال، أواه قضيت والله علي، أنا والله أخبرك: ما دهاني إلا أني هجيت كذا وكذا شاعرا فسمي عددا كثيرا، وأنه تفرغ لي وحدي [29].

أما موقف الشعراء النقاد من لغة الشعر فقد كان مرجعهم في ذلك هو لغة الشعر الجاهلي، بحيث تكون اللغة المحببة لديهم هي اللغة المماثلة للغة الشاعر الجاهلي، فكلما اقتربت من لغة القدماء كلما دل ذلك على أصالة صاحبها في فنه.

والحوار الذي دار بين عبد الملك والفرزدق وجرير وذي الرمة يؤكد ذلك.

(يا فرزدق، أتعرف أحدا أشعر منك؟ لا إلا غلاما من بني عقيل، يركب أعجاز الإبل وينعت الفلوات فيجيد، ثم جاء جرير فسأله عن مثل ما سأل الفرزدق فأجابه بجوابه، فلم يلبث أن جاء ذو الرمة فقال له: أنت أشعر الناس؟ قال: لا ولكن غلاما من بني عقيل يقال له مزاحم يسكن الروضات، يقول وحشيا من الشعر لا يقدر على مثله، فقال: أنشدني بعض ما تحفظ من ذلك، فأنشده قوله:

خليلي عوجابي على الدار نسـأل متى عهدها بالظاعن المترحل

فعجت وعاجوا فوق بيداء مورت بها الريح جولان التراب المنخل

حتى أتي على آخرها ثم قال: ما أعرف أحدا يقول قولا يواصل هذا) [30]

لعل هذا الحكم من أكبر دلالاته أنه يكشف بوضوح عن اتجاه الشعراء إلى الغريب من الألفاظ والمعاني البدوية ومن وظف ذلك في شعره بقسط أوفر كان أشعر من غيره، وهذا ما قرره الفرزدق وجرير وذو الرمة.

هذه إذن أهم المقاييس التي استعملها الشعراء النقاد لمعرفة مقدار جودة الشاعر وتقدمه على غيره من الشعراء وقد كانت كما رأينا في أن مقياس الشاعرية يتمثل في طرق جميع الأغراض والإجادة فيها كما كان الهجاء والمدح من الأغراض الأساسية في تقديم الشاعر وتبجيله على غيره من الشعراء.

أما معيار لغة الشعر عند هؤلاء الشعراء هو مدى التطابق الذي يحققه الشاعر بين لغته ولغة الشعر الجاهلي وكلما اقترب من ذلك كان أجود.

خصائص الحكم النقدي

ومن هنا يمكن أن نجمل خصائص الحكم النقدي في الشام العراق فيما يلي:

إن الأحكام النقدية التي انطلقت من السنة جميع الطوائف - شعراء - لغويون - نحاة - رواة - أو تلك التي دارت في المجالس النقدية - تمتد بجذورها إلى أعماق العصر الجاهلي، ذلك أن أصحاب هذه الآراء لأسباب عديدة ظلت أذواقهم جاهلية وترتب عن ذلك أن اتخذوا من المقاييس الجاهلية معيار لجودة الشعر في عصرهم.

فمعيار المبالغة في تناول الأمور هو الذي امتد في هذا العصر ومنه انطلق كثير من النقاد في تقيم الشعر والحكم عليه من ذلك حكم الخليفة عبد الملك بن مروان على بيتي "كثير " فقد اتهمه الخليفة بالتقصير في الوصف وفضل عليه قول الأعشى:

وإذا تجيء كتيبة ملمومـــــة خرساء يخشى الذئدون منها لها

كنت المقدم غير لابس جنـــة بالسيوف تضرب معلما أبطالهـــا [31]

فزعة المبالغة هي التي تقف وراء تفضيل الخليفة لبيتي الأعشى وهي كما نعلم نزعة جاهلية.

وكذلك معيار المثالية وهو توخي النموذج الأمثل في كل صياغة شعرية، فقد كان أساس كثير من الأحكام من ذلك حكم الأصمعي حين سمع قول كعب بن زهير في وصف ناقته

ضخم مقلدها فعم مقيدها

قال: هذا خطأ إنما توصف النجائب بدقة المذبح. [32]

وكذلك اعتراضه على وصف أبي ذؤيب - لفرسه، بأنها لينة اللحم في قوله:

قصر الصبوح لها فشرج لحمها بالني فهي تثوخ فيها الأصبع. [33]

فقال: هذا من أخبث ما نعتت به الخيل - والصواب أن توصف بصلابة اللحم.

كما كانت لغة الشعر الجاهلي مرجعا لقياس تفوق الشاعر كما حدث مع الوليد بن عبد الملك وذي الرمة فقد قال له الوليد:

(ويحك أنت أشعر الناس؟

فقال: لا ولكن غلاما من بني عقيل يقال له مزاحم يسكن الروضات يقول وحشيا من الشعر لا نقدر على أن نقوله) [34].

كما كان إلمام الشاعر بجميع الأغراض مثار إعجاب النقاد ومقياس الشاعرية عندهم، فقد روى حماد عن أبيه زبرك بن هبيرة قال: (كان جرير ميدان الشعر من لم يجر فيه لم يرو شيئا" [35].

وكذلك علل أبو عبيدة - لمن قدم جريرا فقال: يحتج من قدم جريرا بأنه كان أكثرهم شعرا ...

ولعل تشبيه الفرزدق بزهير والأخطل بالنابغة، وجرير بالأعشى أكبر دليل على سطوة الفن الجاهلي على هؤلاء النقاد وبعبارة موجزة نقول: إن مقياس جودة الشعر عند هذا التيار التقليدي في النقد العربي يتمثل في مدى تحقيق المطابقة بين شعر عصرهم وشعراء العصر الجاهلي.

الهوامش

(1) - سورة الشعراء الآيات: 224، 225، 226، 22

(2) - الحسن بن رشيق القيرواني - العمدة في صناعة الشعر ونقده - تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، ص20

(3) - المصدر نفسه ص20.

(4) - محمد بن سلام الجمحي - طبقات الشعراء - إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي دار النهضة العربية، بيروت.1969. ص25

(5) - ابن رشيق العمدة ص 25

(06) - عبد الله بن مسلم ابن قتيبة - الشعر والشعراء ج1، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر 1966، ص133

(7) - أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني - ج 1، تحقيق لجنة من الأدباء - دار الثقافة - بيروت، ص 86.

(8) - المصدر نفسه ص 86

(9) المصادر نفسه ص 83.

(10) - المصدر نفسه ص 81

(11) - المصدر نفسه، ص 113 - 114

(12) - محمد بن عمران بن موسى المرزباني - الموشح - تحقيق: محمد شاكر مطبعة الدي القاهرة ط 2، ص 257 - 259 -

(13) - بدوي طباقة - دراسات في نقد الأدب العربي - دار الثقافة - بيروت ط6 - ص 113.

(14) - البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى ق 3هـ، ص 178.

(15) - عائشة عبد الرحمان، قيم جديدة للأدب العربي، نشر دار المعرفة القاهرة 1961، ص 97.

* - هو ثاني الخلفاء في دولة آل مروان وخامس الخلفاء الأمويين، نشأ منذ مولده نشأة إسلامية محضة، وأحب الثقافة العربية من صغره، كما يدل على ذلك ما بيغه من مستوى رفيع في البلاغة ومعرفة الآداب العربية.

(16) -- الموشح، ص 231.

(17) - الأغاني، ج6 ص88.

(18) - الموشح، ص 231، 232.

(19) - المصدر نفسه، ص236.

(20) - الأغاني، ج4 ص 37، 38.

(21) - الشعر والشعراء، 412.

(22) - الموشح، ص 233.

(23) - المصدر نفسه، ص 249

(24) المصدر نفسه، ص 273.

(25) - الأغاني، ج4، ص 54، 52

(26) - المصدر نفسه، ج8، ص 33.

(27) - المصدر نفسه، ج21، ص425.

(28) الموشح ص 274.

(29) - الأغاني، ج21، ص 311.

(30) - المصدر نفسه، ج 19، 34،35.

(31) - الموشح، ص 334..

(32) - (الشعر والشعراء، ج1، ص 152)

(33) - المصدر نفسه، ج 2، ص 654.

(34) من الأغاني، ج12، ص 31،35.

(35) - المصدر نفسه، ج19، ص 34،35.